الروائيون النقاد يمتلكون السر

الروائي ينظر إلى النص من الداخل بحثا عن الانسجام

أمبرتو إيكو، إيتالو كالفينو، ميلان كونديرا، أورهان باموق، عبدالرحمن منيف، يحيى حقي، رضوى عاشور ولطفية الدليمي... روائيون كتبوا النقد

غالبا ما تتهم كتابات المبدعين في النقد أعمال مبدعين آخرين بالانطباعية والضعف المنهجي وارتباك المصطلحات والمفاهيم، وغيرها من التهم التي باتت جاهزة، حيث يكيلها النقاد الاختصاصيون لهؤلاء على أنهم غير متضلعين في النقد. لكن وللمفارقة فإن ما يكتبه المبدعون من نقد يلقى انتشارا واهتماما أكثر مما يكتبه النقاد، نظرا إلى سهولة فهمه مقارنة مع لغة النقد الجافة، إضافة إلى أنهم قد يثيرون قضايا من داخل العمل ويضيئون على ما لا تقدر عين الناقد الوصول إليه.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

عندما صدرت مجلة فصول المصرية في ثمانينات القرن الماضي، سُئل نجيب محفوظ عن رأيه في محتوى العدد (وكان أحد أعضاء الهيئة الاستشارية حسب ترويسة المجلة) فقال جملته المشهورة "إنه لم يفهم حرفا مما قيل فيها"، بل تعجّب من أن النقد أصبح بهذا التعقيد. عبّر نجيب محفوظ ببراءة عن ضِيقه من الألغاز التي يكتب بها الأكاديميون النقد – وبتعبيره – فهم يكتبون "بمصطلحات نقدية توجع الدماغ".

ما النقد الذي كان يريده نجيب محفوظ، وبحث عنه في المجلة المتخصصة، ولم يجده؟ في الحقيقة لم يكشف عنه صراحة، فكما هو معروف عنه وعن توفيق الحكيم، على نحو ما ذكره فؤاد دوّارة عام 1946، "لم يكتبا سطرا واحدا في نقد الإنتاج الأدبي"، لكن محفوظ مرّر ما يودّه، وما يميل إليه في حواراته الصحافية، وهو ما كشف عنه كتاب صدر في القاهرة بعنوان "نجيب محفوظ ناقدا"، وإن كان الكتاب لا يقدّم محفوظ كناقد بالمعنى المعروف، وإنما هو يفحص حوارات نجيب محفوظ ويستشف منها آراءه النقدية، وإلمامه بالنظريات النقدية الحديثة، وهو ما يشير إلى وعي نقدي كان يلازمه، دون أن يوجّهه إلى قراءة أعمال أدبيّة.

البحث عن الانسجام

على عكس نجيب محفوظ مارسَ كتّاب عالميون وعرب مهمّة النقد، وقدّموا إسهامات غاية في الأهمية تعدُّ مراجع لكل الدارسين والباحثين، على الرغم من أنها لم تستقوِ بالمصطلحات والنظريات النقدية، وإنما جاءت منسجمة مع وعيهم الذاتي في فَهم الأعمال. فمثلا مَن مِن نُقاد الرواية لم يعتمد على كتاب "نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث"، وهو في الأصل دراسات لهنري جيمس، وجوزيف كونراد وفرجينا وولف ود. ه. لورنس، وهم في الأصل روائيون.

هناك أسماء كثيرة من الروائيين مارست النقد كديفيد لودج وأمبرتو إيكو، وميلان كونديرا وإيتالو كالفينو، وأورهان باموق، ويحيى حقي، ويوسف جوهر، وعبدالرحمن منيف، ولطيفة الزيات، ورضوى عاشور، ولطفية الدليمي. كثيرون (وكثيرات) كتبُوا (وكتبن) مقالات ودراسات كشفوا (وكشفن) فيها عن عوالم الكتابة الروائيّة وعناصرها.

في هذه المقالة سأتوقف عند بعض الأعمال التي كتبها روائيون محترفون، ساعيا إلى اكتشاف القضايا التي شغلتهم، والظواهر التي لفتت انتباههم أثناء قراءة أعمال غيرهم. لكن علينا أولا أن نطرح هذه الأسئلة، علّها تكون مفاتيح لاستجلاء دوافع الكتابة.

ما الذي يدفع الروائي إلى أن يترك مهنته ليمارس النقد والتنظير للفن الذي يكتبه؟ هل تتساوى مهارته كناقد مع مهارته الروائية؟ هل ما يبحث عنه في الرواية بخبرته الروائية يختلف عمّا يبحث عنه الناقد بخبرته الأكاديمية؟ هل الباعث من وراء نزوله عن عرش الكتابة الروائية إلى النقد الذي وصفه بطل "في انتظار جودو" – لصمويل بيكت – بأنه "استئصال للرحم بمجرفة"، هو فقدانه للنقد المعبّر عمّا يكتبه، فيسعى إلى تلافي هذا العجز في ممارسته الخاصة، سواء بكتابات متفرقة على هيئة مقالات، أو في كتابات مستقلة؟ والأهم كيف تأتي كتابة الروائي النقدية؛ هل تميل إلى إحساسه وذائقته، أم تتصل اتصالا وثيقا بلغة وقواعد النقد الأكاديمي اللتيْن يَنْفُرُ منهما هو في الأصل؟

في الحقيقة تأتي كتابات الروائيين أولا، تلبيّة لاحتياجات الذائقة الخاصّة (أو الذائقة الفردية)، فمعظم قراءاتهم منسجمة مع بحثهم عن الانسجام داخل العمل الأدبي، أو تأثير هذه الأعمال التي قرأوها على ذواتهم، ومدى استجابتهم لهذا التأثير.

كما أنّ هذه القراءات ابتعدت عن تلك المنهجيّة التي يألفها النُّقاد الرسميون، وهو ما يعني في معناه المضمر هو رغبة الكُتّاب أنفسهم بقراءة أعمالهم بعيدا عن القوالب (أو الماكيتات) الجاهزة. وهو ما نراه واضحا في بحث فرجينيا وولف عن "الشخصية الروائيّة"، فهي بدلا من أن تقدّم معايير وسمات للشخصية، عن طريق التحليل والتجريد، تطرح في مقالتها قصة "رحلة من ريتشموند إلى وانرلو" بغية أن توضح ما الذي تعنيه بالشخصية ذاتها، وبالمثل ميلان كونديرا يسعى "في الوصايا المنبوذة" إلى نظرة صافية ومتحرّرة من الوهم.

غاية الروائي هو البحث عن المعنى والرسالة داخل النص، وكيف عمل الروائي عبر التآلف بين عناصر الرواية من توصيلها بانسيابية واتساق. وفي نفس الوقت تأتي ممارسته النقدية لتأكيد دور النقد في خدمة الإبداع، وكيف أنه جزء مكمل للعملية الإبداعيّة وليس منفصلا عنها.

روائيون عرب

من الأسماء – في عالمنا العربي – التي مارست هذه الوظيفة المزدوجة، يحضر اسم الكاتب يحيى حقي، وهو صاحب الإنجاز المهم في الرواية (قنديل أم هاشم، والبوسطجي، ودماء وطين، وغيرها)، ومع هذا الاهتمام بالرواية والقصة إلا أنه ترك للمكتبة النقدية كتابه الرائع "فجر القصة" (1960)، وهو الكتاب الرائد الذي أرّخ فيه للفن القصصي المصري الحديث، وبداياته.

يأتي الكتاب من نظرة خبير يُعاين النصوص بمنطق الذوّاقة، فيكتب عن رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل، وعن رائد القصة القصيرة محمد تيمور، ومحمود طاهر لاشين، وعيسى عبيد وشحاته عبيد، وفي الكتاب إشارة إلى دور قصص توفيق الحكيم في انتهاء عصر الاقتباس والشكوك، وانتقال القصة من الوجدان فقط إلى الوجدان والفكر معا، ومن السطحية إلى العمق، وعلى يده تحول الأسلوب من الشكل إلى الجوهر.

كما يتوقف حقي عند عملي الحكيم: أهل الكهف وعودة الروح، ويحلل ببصيرة ووعي إمكانات الفن عنده، رافضا آراء النقاد الذين رفعوا أهل الكهف عاليا وهبطوا بعودة الروح أرضا. كتابة حقي هي إنصات حقيقي للنصوص وتأثيراتها على المتلقي، بما تطرحه من قضايا جادّة تمسّ وقائعها، دون أن يغضّ الطرف عن مسالبها.

عبدالرحمن منيف الروائي المُحنّك، وضع هو الآخر خلاصة تجربته في الكتابة الروائيّة، في كتابات نقدية عالج فيها مسائل خاصة بالرواية وموضوعاتها وأيضا فنياتها، فقدّم أكثر من عمل تناول فيه أعمال سابقين، منها كتابه "لوعة الغياب" وكتاب "رحلة ضوء" وكذلك كتاب "بين الثقافة والسياسة".

يتحدّث منيف في كتابه "لوعة الغياب" عن شخصيات أدبيّة راحلة، متناولا أعمالهم بالدرس والتحليل، من خلال استجلاء التراجيديا في حياتهم المتمثّلة في المأساة بكافة تنويعاتها: الموت والقتل والمنفى واستبداد السُّلطة وضيق المكان والاغتراب عن الواقع وضياع الأحلام والإخفاق عن تحقيق المشروع الذاتي في ارتباطه الجدلي بالمجتمعي والتاريخي ثم الكوني فالحضاري. في واقع الأمر هي كتابة تمزج بين الذاتي والموضوعي كما في دراساته عن سعدالله ونوس، غائب طعمة فرمان، جبرا إبراهيم جبرا، محمد الجواهري، نزار قباني، جميل حتمل، محمد الباهي، إميل حبيبي، حليم بركات، يوسف فتح الله وحسين مروة، إلى جانب شخصيتين غربيتين هما: الشاعر الإسباني لوركا، والكاتب اليوغسلافي إيفو أندريتش. في الكتاب يختبر درجة قربه من أصدقائه وهو يتناول أعمالهم.

يَبْعُدُ في كتاب "رحلة ضوء" عن الشخصيات الأدبيّة، مركّزا على مناقشة قضايا أدبيّة مُتعلّقة بالرواية، فالقسم الأوّل من الكتاب الذي أَوْقفه على الرواية بعنوان "ضوء على الرواية"، ناقش فيه مفهوم البطولة وتطوراتها، والشخصية الروائية، والحوار، وتحدّث عن صورة المدينة في الرواية، وكذلك العلاقة بين الرواية والسيرة، والتاريخ كمادّة.

موضوعات – على تنوّعها – متصلة بإشكالية الكتابة، فمثلا عندما يتحدث عن مفهوم البطولة في الرواية، يشير إلى انحسار الدور الوهمي للبطل الفردي، وهو ما يُضفي قدرا من المصداقية على هذه البطولة، على نحو ما تجلّى في رواية المغامرات، في حين لعبت الرواية التاريخيّة دورا مزدوجا، إذْ اختارت من التاريخ النماذج الأكثر حضورا وإيحاء ولجأت إلى إعادة التكوين والتركيب ضمن نسق يجعل البطل التاريخي بديلا مُناسبا، يضرب أمثلة من كتاباته ومن كتابات آخرين.

كما يستعرض للكثير من عناصر العمل الروائي كالحوار واللغة والبطل، ولكن من منظور تجربته الروائية، وأيضا عبر نماذج روائية عالمية. في هذا يسعى إلى إبراز ملامح التطوّر الذي لحقت بالفن الروائي دون أن يعمد إلى الجنوح للتأريخ أو حتى الإسهاب في الحديث عن عناصر العمل الروائي.

> **ممارسة النقد أو القراءة لدى الروائيين تأتي بمثابة اكتشاف للمعاني المُضمَرة داخل النصوص وتحقيق الانسجام بمتعة القراءة**

وكذلك رصده لمراحل تطوّر الرواية في بنيتها سواء على مستوى مفهوم البطل، وتحوله من البطل الفردي كما في روايات المغامرات إلى البطل العادي من نسيج الحياة، سواء أكان فارسا أم إنسانا مهمَّشا كما صوّرته الرواية التاريخيّة، إلى القفزة المهمّة في مفهوم البطل، حيث لم تعد البطولة مقتصرة على البشر، بل أصبحت الأماكن والحيوانات والأشياء مادة للبطولة. أو على مستوى اللغة، التي كانت تسير بإيقاع غير منتظم بين لغة الحوار ولغة السرد، إلى أن تجاوزت هذا المستوى، وتخلّت لغة الحوار عن عجميتها وصارت لغة قريبة معيشة، لذا نراه يُولي اللغة في الرواية أهمية كبرى، بحيث تكون لغة قوية وحيوية ومتطوّرة، وكيفية استيعاب الحوار لمفردات جديدة، ومرونتها في التعامل مع اللهجات بموازاة للفصحى.

كما يعتبر أن الروايات المغرقة في محليتها، تُشكّل حاجزا بين الرواية ومداها العربي، ومن ثمّ يحكم عليها بأنها ليس لها مستقبل. وبالمثل العربية الفصيحة المقعرة لا تمثّل الصّدق المرجو في العمل. ولذا يميل إلى اللغة الوسطى لأنها الأقرب إلى الواقع.

نظرة منيف للغة واستخداماتها في النص الروائي ما زالت تمثّل معضلة لكتاب الرواية الآن، فكثير منهم يميلون إلى اللهجة العامية، وبعضهم يميل في كتابة الرواية التاريخية، إلى لغة المدونات والحوليات، ظنّا منه أنه ينقل القارئ إلى أجواء العصر، دون أن يدري أنه يعمل على إبعاد القارئ عن النص ذاته. ما تناوله منيف يأتي من واقع تجربته كروائي، ومن ثم نراه يضرب الأمثلة عن كتابات موضحا ما يريد إيضاحه، وهو ما يجعل من النقد أشبه بالإبداع ذاته.

وصايا ومقاربات عالمية

تحت هذا العنوان كتب الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو "ست نزهات في غابة السرد"، هي رحلة روائي في غابات السرد منصتا لكافة الظواهر المتعلّقة بالعملية الإبداعيّة، مستندا إلى مفهوم الغابة بإيحاءاتها المتنوّعة، وباحثا في مفهوم القارئ وأنواعه، والمؤلف واستراتيجياته التي لا تنتهي. الكتاب في أصله هو المحاضرات الست التي ألقاها عام 1993 في إطار برنامج "قراءات نورتون الست" الذي تنظمه جامعة هارفارد، ومن قبل تحدّث في أشبه بوصايا تحت عنوان: "آليات الكتابة السردية"، وبالمثل في "اعترافات روائي ناشئ" الذي هو أشبه بحكاية السيرورة أو سيرورة البناء. إيكو يُقدّم مقارباته الشخصيّة، وفهمه لطرائق الكتابة مستعينا بأمثلة من روايات عالميّة، وأيضا من مشاهد من رواياته، وحالة الجدل بين ما يتصوّره، وما يفهمه أو يكتشفه المتلقي.

على نفس الخط يُقدّم الروائي الإيطالي إيتالو كالفينو "ست وصايا للألفية القادمة: محاضرات في الإبداع"، وهي المحاضرات الخمس (الخفة، السرعة، الدقة، الوضوح، التعدديّة) التي قدّمها في برنامج المحاضرات السّت، إلّا أنّ القدر لم يسعفه لتقديم المحاضرة السادسة عن الاتّساق. كالفينو خرج من عباءة الروائي، وحلّ محل الناقد فيتحدّث برؤية مستقبليّة عن مصير الأدب في الألفية الجديدة، أو كيف نحافظ على الأدب في عصر التكنولوجيا.

وبخبرته الروائية يراهن على الأدب، فيقول إنّ هذه الرؤية المستقبليّة لن يمنحها إلا الأدب ولكن بوسائل ملائمة له. فيتحدث في كتابه عن الخفّة في الأدب ويعتبرها من قيم النجاح لا من قيم الفشل، مستعينا بالكثير من الكلاسيكيات والأساطير التي تُمجّد الخفّة وتمنحها الانتصار الأخير على قيم الثّقل. بل يشير إلى جماليات الخفّة، في مقابل الثّقل، ويرى أن ثمّة اتجاهَيْن في الأدب الأول يمثّله اتجاه الخفة والثاني يمثله اتجاه الثقل.